إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

.

ميِّتٌ مَن لا يُجازفُ باليَقين،
في سَبيلِ اللايَقين..
لئلا يُطاردَ أحَدٌ أحلامَه!

بابلو نيرودا

هناكَ أناسٌ يَصنعونَ الأحداث،
وأناسٌ يتأثَّرونَ بها..
وهناكَ أيضًا مَن يَجهَلُ تمامًا ماذا يَحدُث.

جورج برنارد شو

– من أنتَ يا هذا؟

– قلتُ لكِ يا إيميه أنا فاعل خير.

– ولماذا أصدِّقُكَ؟!

– إذا لمْ تصدِّقيني فأنتِ الخاسِرَة.. والخطَر المُحدِقُ بكِ حَقيقِيّ!

– إذًا فلنُخبِرِ الشُّرطَةَ بالأمر.

– وماذا ستَقولينَ للشُّرطة يا إيميه؟

– سأخبرُهُم باتِّصالٍ من فاعلِ خيرٍ مَجهول الهُويَّة.. يَوحي إليَّ بتهديداتٍ من مَجهولٍ آخرَ أيضًا. وسأطلبُ الحِماية.

كانَ هذا الحوارُ دائِرًا على الهاتف بينَ إيميه جَبُّور والرَّسول المُنقِذِ الذي طلعَ لها منَ العَدَم! وقد نقلَ إليها أخبارًا في اتِّصالٍ سابق عن مؤامَرَةٍ شَيطانيَّةٍ تُحاكُ لها. وها هو الآنَ في اتِّصالٍ ثانٍ يوقِدُ في هشيمِ جُروحِها نارَ الخَوفِ والقلَق، ويُجهزُ على ما تبقَّى من سَقيطِ عزيمَةٍ في ذاتِها، وهي بحاجةٍ ماسَّةٍ إليها. وكانَ التَّصميمُ أن تواجهَ

التَّحدِّيات لوَحدِها، وتُبقِيَ ذويها بَعيدًا عن دَوَّاماتِها. لأنَّ اتِّساعَ جُغرافيا المَعمَعَةِ يزيدُ في اتِّساعِ الهُوَّةِ بينَها وبينَ غيث. وعَنَّ لها اللُّجُوْءُ إلى الشُّرطة.. ولكنَّها رأت أن تتريَّثَ أيضًا في هذا المَوضوع، حِمَايةً لنَخيلِ الغَرَامِ من شَهيَّاتِ خَفافيشِ القيلِ والقال، وتبقى متأهِّبَةً في محَطَّةِ الانتِظار ريثما يصِلُ قِطارُ الفرَج. وصارتِ الخُروجاتُ قليلة ما خلا الجامعَة، والسَّيرُ خارجَ البَيتِ، دائمًا، معَ الاصدقاء والرِّفقة. وَعادَتِ الأيَّامُ تكِرُّ.. كفاكوناتِ القطار مَشبوكةَ الأيدي، لا يُفرمِلَها شَيْء. وبدا أنَّ الحَيَاةَ تسيرُ سَيرَها الطّبيعي، وأصبَحَ الشَّوقُ إلى غيث أنيسَ وَحشَتِها الوَفيّ. وذاتَ مَسَاء.. كانت إيميه قد تأخَّرَتْ عندَ صَديقتِها في منزلِها في أسفلِ البلدَة. وكانتا تشتَغِلان على الفروضِ والواجباتِ الجامعيَّة، وبدأَ الليلُ يقاربُ نِصفَه، قالت إيميه لصَديقتِها:

– أصبَحَت السَّاعة العاشرَة والنّصف.. لا أستطيعُ أن أتاخَّرَ أكثر.

– حسنًا.. سأطلبُ من أخي أن يوصلَكِ.. لا تذهبي لوَحدِكِ. قالت لها صديقتُها.

ونزلَتْ إيميه منَ الطّبقَةِ الثالثةِ في البنايةِ إلى السَّهْلةِ التُّرابيّةِ التي بجانبِها، لتركبَ معَ أخي صَديقتِها الشَابّ المُراهق، ويوصلَها بسيَّارةِ أبيهِ إلى بَيْتِها في رأسِ البَلدَة.

وما إنْ عبرَتِ السيّارةُ بهما آخرَ الزَّاروب.. ووَصلا إلى منعطفِ الطّريق العامّ عندَ الحَوْرَاتِ الكبيرَة.. اعترَضَتْهُما سيَّارَةُ فولفو دُخانيَّةُ اللّون وأجبَرَتِ السّائقَ الشّاب على أن يوقِفَ سيّارتَه إلى جانبِ الطَّريق. ثمَّ انبَثقَ منها بسُرعةِ البَرق رجُلان بنَظَّارَتَين سوداوَين للتَّخفّي، وركضا إليهما. صرخَتْ إيميه! والشَابّ بجانبِها صَارَ يَرتَجفُ كوَرَقةِ الخَريف. شَهَرَ واحدُهُما سِلاحَهُ في وَجهِ الشَابّ.. وصاحَ به:

– ضَعْ رأسَكَ في الأرض وليه.

فصارَ الفتى يَبْكي بُكاءَ الأطفال.. وقد غَطَّى رأسَه بكلتا رَاحَتَيهِ وَخبَّأهُ بَينَ رُكبتَيه.

وما إن كَمَّ أحَدُ المُهاجِمَين فمَ إيميه شعرَت بإعياءٍ وارتخاءٍ في أطرافِها.. وبدا العالم في نظرِها ألوانًا تتداعى كتموُّجاتِ الأحداثِ في كابوسٍ مُزْعج. ولم تَصحُ من هذا الكابوس

إلاّ على مَقرُبةٍ من بَيتِها وفي سيَّارَةٍ غريبة! وكانَ السّائقُ رَجُلاً يُخفي ملامِحَه بقبَّعَةٍ ونظَّارَتَين هو الآخر، يضعُ محرمَةً ذات رائحَةٍ منعشَة على أنفِها.. فاستَفاقَتْ مَذعورَةً! وقالت بتكاسُل وهي لا تكاد تدركُ مَعالمَ الأشياءِ من حَولِها:

– مَن أنت؟! إبتَعِدْ عَنِّي.

– أنتِ الآنَ بأمان قربَ منزلِكم يا إيميه.. هيَّا اذهبي. لقد أنقَذْتُكِ منَ الكارثة.

قالَ بهدوء، ثمَّ دارَ حولَ السيَّارَةِ وأمسكَها بيَدِها وساعدَها على الوقوف. جمَدَتْ مكانَها كامرأةِ لوط. وعادَ هو إلى السيَّارَة ونظرَ إليها وقالَ مبتسِمًا، وقد استَشعرَتِ ابتسامةً في مُحيَّاه، معَ أنَّها لمْ تَعِ ملامِحَه قطّ:

– الحمد لله على السَّلامة. أنا هو فاعِلُ الخير. وانطلق.

وفي اليومِ التَّالي، عادَ واتَّصلَ ليَقولَ لها:

– لا أعرفُ لماذا أنتِ لا تُخبرينَ الشُّرطة! لقد أنقذتُكِ البارحَة من يَدِ المُغتصِب لا القاتل.. لأنَّ الهدَفَ جسَدُكِ وليسَ حياتَك. دُمْتِ بخَير إيميه.

وما إن سَمِعَتْ إيميه هذه الكلمات حتى امتلكَتْها الرِّجفةُ من أمِّ الرأسِ حتى الأخمُصَين. ومشَتْ إلى دَورَةِ المياهِ كرَجُلٍ آليٍّ بطيئةَ الخُطى، ودَمعةُ المَرَارَةِ تترقرَق في عَيْنَيها ودقّاتُ القلبِ تتسارع. أقفلتِ المسكينة الحَمَّامَ وراءَها، ونزعَتْ عنها ملابسَها وراحَت تتحَرَّى تضاريسَ جَسَدِها ومَعابرَهُ أمامَ المِرآة.. وأدْخَلتْ أنمُلَها بَيْنَ فَخذَيْها.. لتكتَشِفَ أنَّها لا زَالتْ عَذرَاء! فتنَفَّستِ الصُّعَداء واستَرخَت أعصابُها. ولكنَّ الحَقيقةَ المُذهلة التي أدرَكَتْها الآن.. أنَّ فاعلَ الخير هذا صادقٌ في جَميعِ بياناتِه! لم يعد، والحالة هذه، بمقدور إيميه أن تخفيَ أمرَ هذه التَّهديدات. فأخبَرَت والدَيها وطلبوا الحمايةَ من الشُّرْطة، وشرَعَ رجالُ التَّحَرِّي في تقَصِّيَاتِهم. ولكن في الجِهَةِ المُقابلَة.. بل هناكَ في "الغُرفةِ السَّوداء" كانتْ خيبَةُ فراس ابنِ الوَزير وسابين سماحة مُرَّةً غاضبَة! فقدِ اتَّصلَتْ هي بهِ تسألُه بإلحاح، مَقطوعةَ الأنفاسِ مُضطربَةَ الكلمات، وَالنَّمِرُ والغزَالةُ كلاهُما يَتَعرَّقانِ منَ العَدْوِ أثناءَ عمليَّةِ الصَّيد:

– طمْئِنِّي يا رَجُل.. كيفَ جَرَتِ الأمور؟

وأجابَها فراس منَ الطرَفِ الآخر بصوتٍ خافتٍ خائبٍ مرتجف:

– هناكَ مَن يَعرفُ بمَشرُوعِنا يا سابين..

– ماذا تقول يا هذا.. ماذا حَدَث؟

– لقد تدَخَّلَ بطلٌ فارسٌ مَجهول في اللَّحظَةِ الأخيرَةِ.. قفزَ منَ العدَم! وأنقذَ إيميه من يَدِنا.

فذُعِرَتْ سابين.. وصمتَتْ لدَقيةٍ تُعارِكُ أفكارَها.

– ما بكِ ساكتَة؟ سألَها.

فقالت له بحَزْم:

– لنوقِفْ كلَّ شَيْء مَرْحَليًّا يا فِراس. ولنتَوَارَ ونُراقبْ عَن بُعد كلَّ جديد.

وعادَتِ الأيّامُ وهَرْولَتْ سَريعَةَ الخُطى. وشَيئًا فشَيئًا عادَتِ الطمأنينةُ إلى قلبِ إيميه وعادَتْ تعيشُ وَتيرَةَ تناسُخاتِ يوميَّاتِها.. والشُّرطةُ لم تصِلْ إلى شَيْء. وَزَارَت غيث مَرَّةً واحدَة أيضًا في السِّجن، سِرًّا، وكانتِ الأخيرَة. وأمَّا زياراتُ غَريمَتِها فدامَتْ حتى يومِ خُرُوجِه. فقد حَضرَتْ سابين سماحَه بنفسِها إلى السِّجن، وأتَمَّت بعضَ الأوراق ووَثيقةَ إنهاءِ مُدَّةِ المَحكوميَّة، وجاءَتْ به بسَيَّارَةِ أخيها البيجو الذَّهَبيَّةِ اللّون إلى فندُقٍ في برمَّانا، ليَتَناوَلا وَجبَةَ غداءٍ دَسِمَة بعدَ صيامِ غيث الطّويل عن الأطايب. وَجَلسا على طاولةٍ مُنفردَة. ثمَّ شَرَعا يتناولانِ المُقبِّلات على أنغامٍ شَرقيَّةٍ كلاسيكيَّةٍ خافتة. سألته:

– ما هي مَشَاريعُك الآن يا غيث؟

تنهَّدَ.. وصمتَ لثوانٍ.. ورشفَ رشفةً منَ الجِعَة، ثمَّ أجاب:

– لا عَودَةَ إلى الدِّرَاسَة. وأنا مُشتاقٌ جدًّا لِلكرَةِ الطّائِرَة.

صمتَ ثانيةً قبلَ أن يتحدَّث ببُطءٍ.. متعمِّدًا أن يوصلَ لها رسالتَه:

– وسأكملُ الطَّريقَ الذي بدأتُهُ معَ إيميه.

فابتسَمَت سابين.. وسألَتْ في شبهِ تهَكُّم:

– مشاريعُكَ متواضعَة جدًّا! أينَ الطُّموحاتُ السِّنْدِباديَّة؟

فأجابَ:

– الطّمُوحاتُ باقية.. ولكن برفقةِ إيمِيه.

فقالت له مُتماديةً في تَهَكُّمِها، قبلَ أن راحَتْ تكرَعُ من كأسِ جِعَتِها:

– تُريدُ أن تقولَ أنَّ حبَّكَ أفلاطونيٌّ لهذِه الدَّرَجة؟!

وهكذا وضَعَ غيث، في هذا اللِّقاء وبدبلوماسيَّة، حَدًّا لفكرَةٍ عندَ سابين استَشعَرَها عثرَةً له في مَسيرَتِهِ معَ إيميه.. وهو يَجهلُ تمامًا أنَّ دَخيلةَ سابين أكثر طموحًا ممَّا ظَنَّ. ولكنَّها من طينتِهِ الانتِهازيَّةِ الوُصوليَّة، وأسلوبُها يروقُ له. لقد تركَ قاربَه تجرُفُه قلَبَاتُ مَوْجاتِها.. إرضاءً لمُتعَتِهِ الإيروتيكيَّة التي بدأت تتَّقِدُ لجَاجتُها يومًا بعدَ يوم. كانَ يَعشَقُ فانتازيَّاتِ لباسِها المُستَفِز فوقَ تضاريسَ ومفاتنَ من نوعٍ صاخب. الطّريقة التي تُبرزُ شبُوبَ النَّهدَين، واللَّمَساتُ الزُّخرُفيَّة في وَضعِ التَبرُّجات، ودَلعَاتُ الخَصرِ والكتِفَين، وإيقاعاتُ صَوتِها حين تناديه باسمِه، والإيحاءَاتُ الجنسيَّة حينَ ترقصُ معه وتُعانقُه، ورُومنسيَّةُ مُغامَرَةِ الأنامِلِ فوقَ متاهاتِ جَسَدِهِ النائيَة.. وتلكَ النَّوَافذُ الفضوحيَّة المُشرفة على بقاعاتِ البَشَرَةِ البرونزيَّة الأثيريَّة. هذا الخَليطُ ألَّفَ كوكتيلاً طيِّبًا.. ولذّةً مُقنِعَةً مُروِيَة. وعلى أساسِ هذه الآليَّة تعاقبَتْ فصولُ علاقة غيث وسابين.. وبخلافِ العلاقةِ معَ إيميه جَبُّور الهادفة.. حتّى انبثاقِ تلكَ الثريَّةِ اللبنانيَّة الأصل والأميركيَّة الجنسيَّة آنجيلا. وعندَما تحَدَّثَتْ إيميه إلى غيث عنِ المُحاولةِ الفاشلَةِ والغامضَة لاغتِصابِها، طارَتْ صقورُ ظنونِهِ إلى فارس ابنِ الوَزير. سألَها، وهما يتناولان عصيرَ الفواكِهِ في ذلكَ النّادي الليليّ في آخرِ الزِّقاق العتِيق في الطّبَقَةِ السُّفليَّةِ الأولى:

– كيف تقرأينَ ما حدَثَ لكِ إيميه؟

– ليسَ لدَيَّ تفسير. الشُّرطة لم تصِلْ إلى شَيْء. ويَبدو أنَّ الخَطَرَ قد زال. أجابَت.

– وفاعلُ الخير هذا؟ سألَ غيث.

– لقد انشقَّتِ الأرضُ وابتلَعَتْه هو الآخر!!

– شُكوكي تُحَوِّمُ صوبَ ابنِ الوَزير. قالَ لها.

– يبدو الموضوع انتهَى على خير! لننسَ الأمر أرجوك.. ونَفتَحْ صفحَةً جَديدة. قالت بحماس. ثمَّ صَمَتَتْ قليلاً.. وعادَتْ فسألت كأنَّ وَحيًا هبطَ عليها:

– والدِّرَاسَة.. ألن تعودَ إلى مُتابَعَةِ دِرَاستِك؟

فأجابَ غيث باقتِضاب:

– لا.. موضوع الدِّرَاسة انتَهَى وهذا قرار. وأنتِ.. كيف تسيرُ الدِّرَاسَة معَكِ؟

– جيِّدَة. إنّني مُرهَقة جدًّا منَ المشاريع. بالمناسبة ستقيمُ الجامعَة معرضًا لأعمال الطلاَّب الفنيَّة في الكسليك، وهناك شَخصيَّات ووجوه مدعوَّة إلى الافتتاح. وأنتَ بالتَّأكيد أوَّلُ المَدعُوِّين.

– ولماذا أنتِ مُتَحمِّسَة لدَعوَتي ؟

– لكي ترى أعمالي المائيَّة التي أنجَزتُها في غيابك.

وهكذا كان. عادَ وأقلعَ الغرامُ للعَهدِ الثّاني بَينَهما، معَ تحفُّظاتِ والدَي إيميه نحو غيث.. والاقتناع بتردُّد أن يُعطى فرصَة. وحتى ساعَتِها.. كانَتِ العلاقة بين غيث وإيميه تبدو وكأنَّها، معَ ضَعَفاتِها، تنتَصِرُ على التَحدِّيات وتقفِزُ فوقَ العثرات. ذلكَ أنَّ هذه العثرات من نَوعِ الحَصى الصَّغيرَة، ومتى جاءَ دورُ الصُّخور الكبيرَة قد يُحدِثُ الاصطِدامُ دمارًا ختاميًّا لهذه الدّراما المُرتبكَة بينَ الحَبيبَين.. خصوصًا إذا كانت تلكَ "العَصَا السِّحريَّة" التي تجعلُ الفقيرَ مليونيرًا في نَقرَةٍ واحِدَة! وأمامَ هذا النّوع منَ التَّعويذاتِ قد يَبيعُ غيث إيميه وسابين.. وَحوريَّاتِ بابل وفارس ومصرَ وبلادِ الكنج جَميعَهُنّ بتَذييلٍ واحدٍ وخَتمٍ واحِد. وهكذا كانتِ الأيَّامُ والشُّهور فُصَاميَّةً تؤرجِحُ غيث

بينَ فضوحيَّاتِ سابين ورومنسيَّاتِ إيميه. ولكن.. معَ الزَّمَن تكبُرُ كرَةُ المشاعر.. وتتورَّمُ غَيْرَةُ المَرأةِ فتصبحَ متلازمَةً مُثقِلةً للبُنيَةِ النَّفسيَّةِ عندَها. وَعَنَّ لإيميه أنَّه لا بدّ من تمرير دُفعةٍ.. أو قِسْطٍ من الجنس لغيث.. "كَرَعْبون"، هكذا ظنَّتْ، لطمأنَةِ قلبِها بسَنَدٍ وَهميٍّ، يضمَنُ لها كاملَ حُقوقِها في حُبٍّ تتناثرُ وَرَقاتُه الخَريفيَّةُ في مواسِمِ التِّيهِ والغُربَة. سوفَ تُرخي خَيْطَها لِزيزِ الشَّهْوَة.. وتُفسِحُ في المَجالِ لدَبُّورِ التَّقبيلِ والمُعانَقَة ومُداعبَةِ المَفاتِن.. وستوفِّرُ له فرصةَ الحُصُول على جزْءٍ من عبَثِ الرُّجولةِ في حَدَائِقِ اللذّة. وبعدَ مرحلةِ التأديبِ في السِّجن.. لا بُدَّ من ترضيَةٍ من نوعٍ ما تشجيعًا له للخُروج النِّهائيّ منَ التَّجربَة. خصوصًا إذا كانت هي أيضًا تشتاقُه! ولكنَّ هذا الرِّيسك.. بل الرِّهان.. سيَمنَعُها من فرملَةِ الجُموحِ في اللَّحظَة المناسبة! سابين قويَّة.. وتجيدُ اللَّعِبَ والتّلاعُبَ ولَجْمِ الانفِعالات.. وإيميه عَاطفيَّة حَسَّاسَة قد لا تكون خليقةً بهكذا مغامَرَة.. بل هي المُقامَرَة عينُها! لقد عادَ غيث يُمارسُ رياضتَه المُفَضَّلة بشَغف. وَجَاءَ شَهرُ أيّار ليُنعِشَ القلبَ والمِزاج، وَخرجَ فريقُ الكرَة الطّائِرة لنادي (مَرفأ الضّبَيِّه) إلى مكانٍ طبيعيٍّ مُجَهَّز مُجاور لبلَدِة لحفد الهادئَة، في مُخيَّمٍ ريّاضِيٍّ تدريبيٍّ لخَمسَةِ أيّام... فنصَبَ الشَّبابُ خيَامَهم في مكانٍ مُنبَسِطٍ قريبٍ من باحَةِ اللّعِبِ الفَسيحَة وتتوَسَّطُها الشَّبَكة. وتوزَّعَ البرنامَجُ الرِّياضيُّ اليَوميُّ بينَ الرَّكضِ الصّباحيِّ على الطّريق الرِّيفيّ حَولَ البلدَة، والتّمارينِ البدنيَّة قبلَ الظّهر، ثمَّ الغداء وَالاستراحَة، وبعدَها مباراةٌ في وقتِ العَصْر، ليَنتهيَ يومُهُم بسَهرةِ نارٍ حتّى الصَّباح. يَشوُونَ اللُّحومَ والدَّجاج والهوتدوغ والبطاطا، ويشربون النَّبيذَ والعرَقَ والجعَة. وَيُطربُهُم في مَرَحِهم هذا عازفُ غيتارٍ بينهم يُنشِدُ لهم الأغاني الشَّعبيَّة والغربيَّةَ بالسَّواء. وَهذا المُخيَّمُ جزءٌ من تحضيراتٍ لمَوسمٍ حافل طويل.

وفي عَصرِ اليَومِ التّالي للمُخيَّم، وبينما كانَ الشّبابُ يستحِمُّونَ ويتَحَضَّرونَ لسَهرَةِ المَسَاء والمرَحِ المَفتوح.. رأوا من بَعيدٍ سيَّارَةً أخذَتْ مفرقَ الطّريقِ التُّرابيِّ متَّجهَةً نحوَ بُقعَةِ التَّخييم. قال واحدٌ من الشّباب:

– إنَّها سَيَّارَة عموميَّة.

– لدينا زُوَّار إذًا. رَدَّ آخر.

وعندَما اقترَبَتِ السيَّارة وتوقّفَتْ عندَ الشُّجَيراتِ الشَّوكيَّةِ الكثيفةِ، وهبَطَتْ منها امرأةٌ فاتنةٌ شَقراءُ! فتعالتِ التَّصفيراتُ "التَّتميرات" من بعضِ الشّباب.. "يا أرض احرُسي ما عَليكِ"، "شو هالجَسَد يا أسَد"، "لقد غيَّرَتِ الشّمسُ رأيَها وعادَت عن الغُرُوب"، "لا.. لقد نزَلَ البَدرُ لكي يُساهرَنا اللَّيلة.. نحن مَحظوظون". فهتفَ غيث بالشَّباب بعدَ أن عرفَ هويَّةَ القادم:

– شباب شباب بليز.. هذه إيميه خَطيبَتي!

فقالَ واحدُهُم متلاعبًا بلفظةِ اسمِ إيميه:

– إذا هيك.. Aimez Aimé jusque bout de la nuit لكان!

– سدّ بوزَك أنتَ ويّاه.. أحسَن ما شوطَكْ بدَبشِي من هالدّبَشات. انتهَرَهُما غيث.

وكلّما اقتربَتْ منهم إيميه كلَّما اكتَشفوا أنوثةً جارحةً من نَوعِ "ضَرْبُ الحَبيبْ زبيبْ". كانت مُتجلِّيةً في حُلَّةٍ رياضيَّة. الحذاءُ رياضيٌّ والجينز زنزانةٌ ضيِّقَةٌ لجَسَدٍ فيَّاض، والقميصُ معقودَة فوقَ خصرِها لكي تُفسِحَ في المَجَالِ لتَسَلُّلاتِ العيُونِ الشَّرهَةِ بينَ القميصِ والجينز. وفوقَ أنفِها النَّاعمِ اللّطيفِ أجلسَتْ نظَّارَتَين سوداوَين كأنَّهما أميرَي زَمانِهما. وَالشَّعْرُ الذَّهَبيُّ حُرٌّ يطير.. كأنَّ لإنامِلِ النَّسيمِ حكايةَ غرام طويلة معه، وفولار حَول العنُق شَفَّافٌ مُلوَّن كفَرَاشٍ فوقَ زَهرَة. وَصَمْتُ الشَّبيبَةِ إزاءَ هذا المَشهَد كهَيبَةِ مُرور أميرةٍ في شارعٍ فقيرٍ في إمارتِها.

– هاي.. كيف الشَّباب؟

وكانَ غيث يقفُ قربَ خَيمتِه.. يتأمَّلُها تقترب.. فدنا هو أيضًا نحوَها، وقالَ:

– ما هذا.. إيميه جَبُّور في دِيارِنا؟!

– صَحيح. إيميه جَبُّور بقامَتِها وسَلامتِها.. أهيَ مُفاجأة سارَّة؟ رَدَّتْ عليه.

– سارَّةٌ جدًّا. ولكن ما سبَبُ هذه الزِّيارَة الرّائعَة؟

– لا سببَ مباشرًا غيرَ أنِّي اشتقتُ إليك.

وعانَقَتهُ بحرَارة وطبَعَتْ قبلةً سريعةً على خدِّه. وقد تعمَّدَتْ أن تجعلَهُ يَشعُرُ بأنَّه سُلطانٌ بينَ الشَّبَاب رُفقائِه.

– شباب.. إيميه جبّور خَطيبَتي. بعضُكم لا يَعرفُها. قالَ غيث للشَّباب.

فهتفَ هذا البَعض:

– تشَرَّفنا بإيميه.. أهلاً وسَهلاً بكِ في مُعَسكر الجُنديَّة.

وللمرَّةِ الأولى شَعرَ غيث نحوَ إيميه بانتفاضِ الرُّجولةِ فيه حتى الشَّراهَة. لم تكن فاتنةً مُثيرَةً خُرَافيَّة فقط.. ولكنَّهُ، ولا يدري كيف! رآها تجربةً مُرَّةً لناسِكٍ مُزمِن. والرِّياضةُ عُمومًا تُلهي الغريزةَ وتُشغِلُها وقتًا ما.. إلاّ أنَّ حُضورَ إيميه السِّحريَّ بينَ خِيَامِ العُزُوبيَّةِ هذه، جَعلَ رجولتَهُ المتَذَبذبةَ بينَ هوَسِ الثَّروَةِ والرِّياضَة والمِزاجِ التَلَصُّصِيِّ الغامض تَستَنفِرُ كأنَّها سَمِعَتْ صَفَّارةَ الإنذار المبكِّر. سَألها:

– حتمًا لن تَعودِي اللَّيلة؟! وهو غيرُ مقتَنعٍ بَعد ببَقاءِ يَمَامتِهِ الجَميلة في مُخَيَّمٍ لدَزِّينتَينِ منَ الصيَّادين. وأذهلَتهُ برَدِّها:

– لا.. سأبقى قربَكَ حتى نهايةِ المُخَيَّم.

قالتِ المسكينةُ وهي لا تعي أيَّ انفجارٍ حدَثَ في ذاتِ غيث. وَجلسَتْ على جذعٍ خشبيٍّ قربَه وتحادَثا بعضَ الوَقت.. ثمَّ شَمَّرَت عن ساعدَيها حتى المِرْفَقَين وقالت:

– سأعِدُّ أنا لكم العِشَاء.

– ألم تُحضِري معَكِ أغراضَك؟ نحنُ في البَريَّة. سَألَها.

– غدًا ستأتي ابنَةُ عَمَّتي وتجلبُ لي معها ما أحتاجُه. رَدَّتْ عليه.

ثمَّ راحت إيميه تعِدُّ لشَبابِ الفريق من حواضر ما كانَ لديهم من زاد.. وما قد اشتَرَوهُ من دَكاكين البلدَةِ القريبَة. حَلَّ الظّلامُ.. وَحانَ موعدُ العِشاء وجلسَ الجميع يتناولون الطّعام.. ثمَّ شرعَ البعضُ في الغناءِ على تقسيماتِ الغايتارمان الذي كانَ معهم. ووُجوهُهم تتلوَّنُ بشُعاعاتِ النَّارِ المُرتعشَةِ في وسَطِ الدّائرَة.. كأنَّها الشّمسُ وهمُ

الكواكبُ يتَهَادَونَ من حولِها. غنُّوا أغانيَ متنوِّعَة. والتهَبَ الحماسُ فيهم فنَهَضوا يَرقُصُون. وأمَّا إيميه فكانت جالسةً بقربِ حَبيبِها غيث يشربان الجعَة. كانت تضَعُ رأسَها على كتِفِه.. أو تطعِمُه قطعةً من اللَّحْم بيَدِها.. أو يشربان كلاًّ من كأسِ الآخر. ثمَّ اقتربَ واحدُهم وأمسكَ بيَدِ إيميه ودعاها إلى رَقصَة، فنهَضَت بحماسة. وشَرَعتْ تغزلُ بينَ الشَّبَاب! ثمَّ عادَ هذا الشَّاب بعدَ دقائِق إلى غيث وقالَ له:

– ألا زلتَ قابعًا في مَكانِك؟!

وشدَّهُ بيَدِهِ فقام. وتحلَّقَ الجميعُ حولَ غيث وإيميه. حفلة توديع العُزوبيَّة.. كأنَّها! وكانت إيميه سعيدةً جدًّا. والأخطبوطُ الذي سيَخطفُ غيث من شواطئِها العاشقَة بات على قابِ قوسَين أو أدنى!! وعَبَرَ ثُلثا الليل والشّبابُ بينَ السَّمَرِ والمرَحِ والغناء وروايةِ الطَّرَائفِ والتحدُّثِ بالتَّحضيراتِ للمَوسم. شعَرَتْ إيميه بيَدِ النُّعاس تطبِقُ جفنَيها، ورأسُها على كتِفِ غيث مُلتحفَةً بالإحرام. وأسَرَتْهُ رائِحَةُ شَعرِها فغاصَ فمُهُ وأنفُهُ فيه، وأغمضَ عَينَيهِ حتى النَّشوَة. قال لها:

– أذهبي ونامي يا إيميه.

ثمَّ أمسكَ بها ورافقَها إلى خَيمتِه.. كأنَّهما عروسان في ليلتِهما الأولى. والحقيقة أنَّها الليلة التَّحضيريَّة "للأولى"! ساعَدَها على التمَدُّدِ وغطَّاها وَجَلسَ قبالتَها يتأمَّلُها ويداعبُ بشرَتَها.. وطبعَ أيضًا قبلةً على خدِّها وَشَفتَيها. ثمَّ تركَها وخرجَ يُكمِلُ سهرتَه معَ الرِّفقة. وهكذا عبَرَتْ الليلةُ الأولى بسَلام. في اليَومِ التّالي جلسَت إيميه تشاهدُ التّدريبات تحتَ الشَّجَرة، تشرَبُ القهوَةَ وتتناولُ البزورات الصَّغيرَة التي تحبُّها. وكانت تقدِّمُ لهم العَصيرَ الباردَ والمشروبَ الغازيَّ بينَ الفينةِ والفينة. وأمسيَةُ اللّيلةِ التّالية كانت كسَابقتِها.. ولكنَّ إيميه لم تكن مُرهقةً هذه المرَّة! وبقيَتْ معَ غيث في "خَيْمَةِ الغَرَامِ" حتى الصَّباح يَقذفُهُما مَدُّ الحُبّ ويجذبُهُما تيَّارُ البَوْحِ وتبتلِعُهُما دوَّامةُ المُداعبات. وانكشَفَ الجَسَدان وتوَاجَها بطريقةٍ.. وتَحَاوَرَا.. غيرَ مُدركَينِ أنَّ اللُّغةَ التي يَلهوانِ بها ستَخُطُّ "فَرمَانَ" الحَيَاةِ الثالثة. فحرَارةُ الشَّوْق وجُموحُ شيطانِ غيث وضعفُ إيميه المُخيف جعَلَ الإثمارَ حَتميًّا. في مُراهَقتِه الأولى، كانَ غيث يُطاردُ التُركيَّة الجَذَّابَة

روجين آتشي، ولسَنوات، حتى الاثمار! وأمّا هنا فإيميه طارَدَتْهُ، وفي لحظَةِ ضعفٍ وسَذاجَةٍ منها، جَعلته يَغرسُ في أحشائِها حياةً جَديدَة. مُفارقةٌ غريبَة والنَّتيجَة واحدَة! والذي يقولُ أنَّ سياجاتِ المرأة أقوى من سياجاتِ الرَّجُل مُخطِئ.. فعواطفُ المرأةِ اللاهبَة كفيلةٌ بتذويبِ وتقطيعِ مَرَاسي النَّجَاةِ كلِّها في لحظةٍ واحدةٍ متهوِّرَة.. مُتمَرِّدة! هذه الليلةُ ستكونُ ليلةً تاريخيَّةً مفصليَّة في حَيَاةِ إيميه، إنَّها "الزِّناد" أو هي النَّافذَة إلى سَنَواتِ المَجْمَرَةِ الطّويلةِ التي راحَتْ تضطرمُ في رُوحِها، لترسُمَ دقائقَ لوحَةِ ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ الدَّاميَة. إيميه تُحِبّ.. وحبُّها منَ النَّوْعِ الوَفِيّ كما غالبيَّةِ النِّساء. ولكنَّ حُبَّ غيث منَ النَّوْعِ الواقعِيِّ جدًّا.. حتى يكاد يشابهُ حالةَ اللاَّحُبّ، أحيانًا.. حتى ولو كانت إيميه هي التي حَكَّتْ ذِهنيَّتَه بمغناطيس فكرَةِ الزَّوَاج فانجَذبَ إليها. ولكنَّ الطّموحَ إلى الثَّرْوَةِ عندَه قادرٌ على إسقاطِ الحِسَاباتِ كلِّها في مُعادلاتِ الوُصوليَّةِ المَرَضيَّة. كأنّ لسان حاله مثلما قال عمر بن أبي رَبيعَة في أيَّامِه: "سلامٌ عليها.. ما أحبَّتْ سَلامَنا. وإن "خَيَّبَتْنا".. فالسَّلامُ على أخرَى"! وفي اللُّغةِ العاميَّةِ الشَّارعيَّةِ يُقال: "مِنّو وتْفوْهْ عليه". وكاريزما إيميه وثقافتُها وتاريخُها سيُعَرِّي كبرياءَها إزاءَ انكِفاءِ غيث وإهمالِهِ لهذه الحِلِيَةِ الثَّمينةِ التي تخبِّئُها في عَميق وجدانِها المُرهف من نَحوه. لم ينتبهْ هو ولا هي أنَّ أحشاءَها باتت مَسكونةً بثمرَةِ هذا الاشتعال الذي أحرقَهُما تحتَ "شادِرِ الغَرَام" في تلكَ الليلةِ العابثة.. والشَّبيبَةُ إمّا نائمونَ أو أنصافُ نائمِين في شَوَادرِهِم بعدَ يَومِهِم الرِّياضيِّ الطّويل. ثمَّ وثَبَ الزَّمَنُ وثبَاتِهِ الغادِرَة.. أيّامًا ولياليَ.. دقائق وثوانيَ.. قبل أن تطفوَ تلكَ الحَقيقةُ الموجعَةُ كطَعنةٍ في جَسَدِ الحُبِّ الأعرَج.. أو الحُبِّ المُنفَصِم.. تمامًا كحالةِ الطّائِرَةِ السَّابحَةِ في السَّماء يَحملُها مُحَرِّكٌ واحِد.. وَالمُحرِّكُ الثّاني الشَّريك فهو صَامِت!

إنتهى المُخيَّمُ التَّدريبيُّ للفريق، وأزَفَ موعدُ المَعرض الذي أقامته الجامعة في الكَسليك لمواهبِ الطلاّب. وعرَضَتْ إيميه مائيَّاتِها الرَّائعَة في أحَدِ أجنِحَةِ المَعرض الكبير. سيِّدَةٌ قريبَةٌ لإيميه جَبُّور.. آنجيلا كينيث.. لبنانيَّة أميركيَّة تعيش في ولايةِ كارولاينا الجنوبيَّة منذ إحدى عشرة سنة، كانَت حاضرَةً في افتتاحيَّةِ المعرض الحافلَة

بالوجوه والمَقاماتِ التَّربَويَّة وَالصِّحافة، فاقتربَتْ من إيميه وعانَقَتْها.. وحادَثَتها بالعرَبيَّةِ المَشوبةِ بالمُفرداتِ الإنكليزيَّة:

– أنتِ موهوبَة يا إيميه. سآخذُ منكِ أربعَ لوحاتٍ، أحضِرُها معي إلى أميركا في أيلول.

واختارَتْ آنجيلا لوحاتِها.. ودَفعَتْ ثمَنَها.. ورَاحَتْ تجولُ في المَعرض.

سألَ غيث إيميه:

– من هي هذِه السيِّدَة؟ فأجابت إيميه في صدقِ عَفويَّتِها:

– إنّها قريبَة لأمِّي.. أختُ زوج خالتي. تزوَّجَتْ من مهندس أميركيّ ثمَّ طلَّقَته.. وهيَ ثريَّة تملكُ شَركةَ عقاراتٍ كبيرَة في كارولاينا. ولا تدري المسكينة أنَّ الشَّيطانَ يجدُ له في كلِّ فاصلةٍ وُجوديَّةٍ سِلاحًا ووَسيلة! وعندَما سمِعَ غيث أنّ آنجيلا ثريَّة أميركيَّة مُطلَّقة ومالكة لشَركةٍ عقاريَّة.. إنَّها الحُلمُ في جَسَدِ الحَقيقَة!! ولم يأبَهْ لفارق العُمر بَينَهما.. هي في بَحر ثلاثينيَّاتِها.. وهو في العِشرينِيَّات! إنبثاقُ آنجيلا المُفاجئ هذا قلبَ لإيميه المِسكينَة ظَهْرَ المِجَنّ. كأنَّه لعنَةٌ.. أو رَصاصَةٌ طائشَة في رأسِ إنسانٍ يتنشَّقَ الهواءَ العليل على الشُرُفة! تفترقُ ظروفُ الحيَاةِ وتتقاطَعُ المَساراتُ في عبَثيَّةٍ غيرِ مَعقولةٍ أحيانًا.. وترسُمُ مصائرَ البشَر وحَبَكاتِ قصَصِهم في دراماتٍ شَكسبيريَّةٍ مَمسُوخَة. "كَنسَلَ" غيث حِكايَةَ إيميه وفصولَها الجَميلة من دِماغِهِ.. وسابين وفضُوحيَّاتِها.. وغيرَهنَّ منَ العابثات.. وشرَعَ يَطبخُ طبخَةً تمتزجُ فيها النَّكهَةُ اللبنانيَّةُ بالأميركيَّة. لقدِ استَحضَرَ مكانَ إقامتِها في لبنان ورقمَ هاتفِها من كَفِّ قارئَةِ دَهائِه، وأقدَمَ على الاتِّصالِ بها وحَادثَها، ومارسَ معها فنونَ كلامِهِ في تَشكيلةٍ من زَخارفِ طموحاتِه. فأتى الصَّيفُ على نهايتِهِ وقدِ اقتنَعَتْ آنجيلا بغيث ودِينامِيَّةِ أفكارِهِ وتوقُّدِ فِطرَتِه التِجاريَّة. ولكنَّها قبلَتْ به بشُروطِها هي.. ووقَّعَ لها على بَيَاضِ إملاآتِها القلِقَة وبُنودِ دَفترِ شُرُوطِ حَذَرِها، غيرَ سائلٍ عن شَيْء. ورتَّبَ معها كلَّ شَيْءٍ في الخَفيَّة، وسارعَ في دَفعِ القاربِ إلى الاقلاع.. وترتيبِ الأمور كلِّها هناكَ بَعيدًا في أميركا، فيَختَفِيَ من فضاءِ المعارفِ والاصدقاء كأنّه سِحْرٌ عَبقَريّ.. في لعبَةِ هُرُوبٍ ماكرٍ غامض لا يدري أحدٌ ما هي دَواعيه ولا وُجهَة مقاصدِه.

ولكن.. وعندَما وَقَّعَ الصَّيفُ تذييلاتِهِ.. بدأت إيميه تشعرُ بتغييراتٍ مُريبَةٍ في جَسَدِها. وها هو الطّبيبُ يؤكِّدُ لها الحَبَل! وعندَما حَدَّثتْ غيث بالحَقيقة جرَحَتْها ارتباكاتُ ملامِحِه وعرَقُ جبينِه. قالَ لها كاذبًا مُرائيًا:

– دَعينا معًا نفكِّرُ يا حَبيبَتي.. لنَجدَ طريقةً لمواجَهةِ هذه الإشكاليَّة.

ونامَتْ إيميه على حَريرِ الاطمِئنانِ الخادع.

وعندَما راحَتْ تحاولُ الاتِّصالَ به بعدَ لقائِهما الأخير هذا.. كانت كأنَّها تبحَثُ عن شَبَح! لقدِ اختَفَى.. تبَخَّرَ.. لا أحَدَ يعرفُ عنهُ شيئًا.. وانتَهى بها المَطافُ إلى حائطٍ مَسدود.. وجُنونٍ مَشْهود! وهكذا باتَ في حِسَابِ غيث الرَّاسي.. بَل في رَقَبَتِهِ مأساتان وجَريمَتانِ: التُّركيَّةُ الفاتنة روجين آتشي، والشَّقراءُ ذاتُ العَيْنَين العَسَليَّتَين إيميه جَبُّور. الأولى أرضى بها نَزَواتِ مُرَاهقتِهِ الأولى العابثة، والثّانيَة علَّقَها على خَشَبَةِ تَوَحُّشاتِ وُصوليَّتِهِ المارقَة. ولكنَّ الحَيَاةَ مُستمرَّة.. وهناكَ بعدُ فصُولٌ تخفي الكثيرَ منَ الأسرار.. والكثيراتِ من طرائِقِها المُدهِشَة.